

قراءة في إدارة حماس للأزمة بقلم د. ممدوح المنير



الخميس 22 يناير 2009 12:01 م

22/01/2009

إن المتابع عن كثب لحركة حماس و أسلوب إدارتها للأزمات الجارية على الساحة الفلسطينية سرعان ما يدرك أنه أمام تنظيم سياسي إحترافي بكل ما تعنيه الكلمة وظهرت هذه الحرفية أكثر في إدارة أزمة العدوان الإسرائيلي على القطاع ، لقد كان الفعل الحمساوي يبعث بالفعل على الدهشة و يجعلك ترفع القبعة احتراماً و إجلالاً لهذا النبت الطيب المبارك و لعلمنا هنا نقدم قراءة سريعة ، تحتاج بكل تأكيد لمزيد من العمق لنعطى لهذه الحركة قدرها و حتى تستطيع كافة حركات التحرر في العالم الاستفادة من هذه التجربة الثرية التي لا ينضب معينها بإذن الله .

ماذا فعلت حماس مع الأنظمة العربية ؟

تعاطت حماس مع الواقع العربي بواقعية فلم تعول كثيراً - على الحكام العرب و لكنها حرصت و على لسان قادتها على وضعهم أمام مسؤولياتهم و ثمنت كل موقف داعم للمقاومة و أشادت به واختلفت و (عتبت) على كل نظام يتصادم مع المقاومة و العتاب هنا لغة مهذبة اعتمدتها حماس في إدارة اختلافاتها مع الأنظمة العربية حتى لا تزيد الأمور تعقيداً ، وحرصت في حوارها مع المختلفين معها أن يكون الحوار بلغة الأرقام واستدعاء التاريخ القديم و البعيد فكانت تدلل على كل موقف بعشرات الأدلة المنطقية و الموثقة التي تلجم الطرف الآخر و تربكه .

كان الموقف الأكثر حساسية بالنسبة لحماس هو الموقف المصري المنحاز بالكلية للموقف الإسرائيلي و إن لجأ في نهاية العدوان لمحاولة إطلاق بعض التصريحات للاستهلاك المحلي و الدولي لتحسين الصورة التي تشوهت و أصبحت أكثر بشاعة من الاحتلال ذاته لأنها من الآخر و الصديق .

ماذا فعلت حماس إزاء هذا الموقف ؟ و خاصة أنها تدرك جيداً أن روح القطاع - معبر رفح - بيدها ؟ ، في البداية حرصت حماس على عدم الدخول في صراع مباشر و تعلن مع النظام المصري و اعتمدت حماس في إدارتها للصراع معه على أسلوب التلميح و الإحراج دون التصادم معه ، بينما تركت مهمة التصادم للمتعاطفين مع الحركة سواء من النخب أو الشعوب و كان هجومهم قاسياً على النظام المصري و ظلت إدارة الأزمة مع النظام المصري تتحرك في خطوط متوازية ، خط تفرضه المقاومة بصمودها و يوصل للجميع رسالة مفادها أن عمر حماس في غزة أكبر مما يتوقعه البعض ، خط آخر لجأ للمواجهة مع النظام المصري بالتلميح و الإحراج حتى لا تستعدي حماس النظام المصري المعادي أصلاً بمواقفه و الخط الثالث هو خط المواجهة المكشوفة و حمل راية هذا الاتجاه هو المتعاطفين مع حماس و مع مشروع المقاومة و كانت هذه الجبهة هي الأكبر و الأكثر تأثيراً - لأنها لم تقتصر على المثقفين و المفكرين فقط و لكنها شمل كل الشعوب الحرة حول العالم و المتتبع لتصريحات خالد مشعل يجد في كل حديث تقريباً مطالبته للشعوب باستمرار انتفاضتها الداعمة للمقاومة و للأمانة لم تكن الشعوب في حاجة إلى من يوجهها فالحدث كان موجعاً و فاجعاً للدرجة التي لا يحتاج أحد إلى من يطالبه بالتحرك ، وكانت نتيجة هذا الفعل السياسي هو أن حماس كسبت المعركة مبكراً و قبل أن تضع الحرب أوزارها كان العدو الإسرائيلي و الحليف المصري يصابا بتخبط في الحركة تحت ضربات الحراك الشعبي العربي و العالمي و خرجت حماس من المعركة و هي تمثل كل رمزية الصمود و المقاومة لمعظم شعوب العالم بينما خرج النظام المصري الرسمي منكس الرأس مكروه من الجميع .

ومما يوضح مدى حرفية حماس في عدم فقد هذا الزخم و الرصيد العالمي ، هو عدم لجوء حماس لسلاح الاستشهاديين داخل العمق الإسرائيلي حتى لا يحدث أي اهتزاز لصورة حماس أو للدعم المعنوي الذي وفرته لها الشعوب .

كيف تعاملت حماس مع العدو في حربه الوحشية ضد الشعب الفلسطيني ؟

أدركت حماس منذ اللحظة الأولى أنها تتعامل مع عدو مفرط في القوة و الوحشية على حد سواء ، لذلك حرصت حماس منذ بداية الحرب على توحيد الكلمة و السلاح في غزة و نجحت في ذلك نجاحاً باهراً بحيث أن المرء لم يشعر طيلة الحرب بأن هناك (فصائل) تحارب و لكن

(فصل) واحد يتحرك بتنظيم و تنسيق متميز ، كما أدركت الحركة أن تحقيق النصر على إسرائيل لا يتحقق بالمواجهة المباشرة و لكن بإفشال أهدافها ، بحيث يكون النصر لا بتكسير عظام العدو و إن كان هذا غاية المنى و لكن بإفشال مهامه التي أعلن عنها و برر بها حربه البربرية ضد الشعب الفلسطيني ، لذلك اعتمدت حماس على إستراتيجية المواجهة غير المباشرة مع العدو للحفاظ على بنيتها التحتية مع استخدام الحرب النفسية و إحداث توازن الرعب عبر تدفق الصواريخ على المدن و البلدات الإسرائيلية التي كانت - الصواريخ اليومية - تعلن فشل الحملة الإسرائيلية حتى انتهت الحرب و لم تحقق إسرائيل هدفاً واحداً مما أعلنته و كان هذا الفشل الذريع هو لب انتصار حماس فحين تكون الحرب بين طرف مفرط في القوة و طرف آخر مفرط في الضعف - المادي - يصبح الثبات على الموقف هو أعظم انتصار .

كيف تعاملت حماس مع المنظمات الدولية ؟

حماس هي أكثر من يعرف أن معظم المنظمات الدولية وجدت من أجل أمن إسرائيل و تبرير مواقفها ، لذلك لم تلتفت إليها كثيراً بل اعتبرت أن اللجوء إليها من الأنظمة العربية هو من باب العبث و العجز بل يصب في صالح الاحتلال ذاته ، حيث ساوت هذه المنظمات بين الجاني و الضحية ، لكن حماس من جانب آخر حرصت على أن تكسب معركتها مع المنظمات الدولية غير الحكومية و التي تحظى بمصداقية لدى شعوب العالم و كان وسيلة حماس هو توثيق الحدث بالصوت و الصورة فسهلت قدر المستطاع مهمة وسائل الإعلام ووفرت لهم كل دعم ممكن للقيام بعملهم ونقل كل هذا الزخم الهائل من صور و مشاهد الدمار و قتل الإنسان و استخدام الأسلحة محرمة دولياً - إلى هذه المنظمات بل دعوتهم إلى غزة لرؤية الجريمة بأعينهم ، و كسبت حماس أيضاً هذه الجولة و بفضل العدو المجرم الذي لم يترك فرصة إلا وأثبت فيها مدى خسته ونذالته ، فأدانت معظم المنظمات الحقوقية ما حدث في غزة بل بدعوا في رفع قضايا أمام المحكمة الجنائية الدولية لمحاكمة قادة العدو كمجرمي حرب .

كيف إدارة الحركة علاقتها مع أبو مازن و السلطة الفلسطينية ؟

استخدمت حماس مبدأ المكاشفة و المواجهة مع نظام عباس و خصوصاً أن تواطئه كان مفضوحاً للجميع ، و أدركت حماس منذ اللحظة الأولى أن يد عباس و نظامه ملوثه بدماء الشعب الفلسطيني فكشفت حماس حجم تواطئه و عزته أمام الجميع و بينت أن اغتيال سعيد صيام لم يكن ليتم بدون مساعدة من السلطة ثم جاء غياب عباس عن قمة الدوحة كاشفاً بلا مواربة عن حجم الخيانة و تكفل هو بفضح نفسه ، نعم استجابت حماس لدعوات الحوار التي وجهت إليها و لكنها كانت تدرك أنها دعوات لإضاعة الوقت فتعاملت معها بحجمها و قدرها ، كما ظهر سمو و نبيل حماس أثناء العدوان ، فرغم أنها أعلنت قبل بدأ العدوان أنها لن تعترف بعباس رئيساً لفلسطين بعد التاسع من يناير إلا أنها لم تجعل هذا معركتها الأساسية أثناء العدوان ، حاولت حماس رأب الصدع و لكن لقا أصبحت رائحة الخيانة تزكم الأنوف لم يكن أمام حماس سوى المصارحة حتى يحدث التمايز بين الحق و الباطل و حتى يعرف الشعب الفلسطيني من يشارك في قتله وسفك دمه .

كيف إدارة حماس علاقتها بالشعب الفلسطيني ؟

علمت حماس أنها لا يمكن أن تنجح في صد العدوان دون احتضان شعبي لها ، فعملت منذ اللحظة الأولى على التعبئة المعنوية الإيمانية و إيضاح الحقائق للجميع و القيام بواجبها كحكومة شرعية من الوفاء باحتياجاته قدر المستطاع .
لم تكن هذه التعبئة الشعبية بالطبع وليدة المعركة فحسب و لكنها جزء أساسي من مشروع حماس الحضاري و كان أهم ما قدمته حماس للشعب الفلسطيني هو النموذج و القدوة في التضحية و الفداء فقدمت من دماء قادتها الكثير و بالتالي أصبح الشعب أكثر اقتناعاً بها لأنها أصبحت في مقدمة من يضحي في سبيل الأرض و العرض و الدين .

إن إدارة حماس للأزمة العدوان يدل على نضج سياسي و فكري و حركي على أعلى مستوى و لا ادعى أن ما فعلته حماس في إدارتها للأزمة يمكن أن يحتويه مقال و لكنها إطلالة سريعة على حركة احتلت بالفعل مرتبة عالية في ضمير هذه الأمة بل لعل لا أكون مبالغاً إذا قلت أن حماس أصبحت نموذجاً يحتذى لكافة حركات التحرر في العالم .